ولكن كان الطلبة اذا ارادوا رؤية البحر اذهب معهم الى ناحية مسجد
الاثار بيركة الحبش فنجلس على البحر ويقرؤن دروسهم هناك قال وكنت
اعوم البحر الى ذلك البر كل سنة مرة خوفا ان ينهلك ادمائي عن العوم فانه
كمال في الرجل والمراة قال وكنت مجاب الدعوة لا اكاد ادعوا على من ظلمني
الا ويقصمه الله تعالى ولا لمريض الا شفاه الله عز وجل فلما اشتهر ذلك اشار
على بعض الفقرا بستر حالي وكان رضي الله عنه كثيرا ما يحكي لي شيا من احواله
ثم يقول يا ولدي اكتم ذلك ايام حياتي لم نطقت بذلك الا لك فيحصل لي
بذلك غاية السرور حيث جعلني موضع اسراره وقال لي مرة هل هنا
احد غيرك فقلت له لا فقال اريد ان اذكر لك بدو امري فتحيط
بذلك علما فقلت له نعم فقال جيت من البلاد الى الجامع الازهر وانا شاب
فلم اعكف الا على الاشتغال بشي من امور الدنيا وكنت اذا جعت واشتد
على الجوع اخرج في الليل الى الميضاة فاغسل قشيرات البطيخ التي حول
الميضاة واكلها واقنع بها عن الخبز فاقمت على ذلك الحال سنين ثم ان
الله عز وجل قيض لي شخصا من اولياء الله تعالى كان يعمل في الطواحين في
غربلة القمح فكان يتفقدني ويشتري لي ما احتاج اليه من الاكل والشرب
والكسوة والكتب ويقول لي يا زكريا لا تخف علي من احوالك شيا فلم يزل
معي كذلك عدة سنين فلما كان ليلة من الليالي اخذ بيدي واتى بي
الى سلم الوقادة الذي في صحن جامع الازهر فقال اصعد هذا الكرسي
فصعدت وهو لا يقول اصعد الى اخر درجة ثم قال لي انزل فنزلت
ثم قال لي يا زكريا انك تعيش حتى تموت جميع اقرانك ويرتفع شانك
وتتولى شيخ الاسلام مدة طويلة ثم انقطع عني فلم اره بعد ذلك الى
يومي هذا انتهى وكانت اول شهرة الشيخ بالصلاح ايام السلطان
خشقدم وذلك انه كان في باب النصر رجل مشهور بالصلاح فمر

عليه

عليه السلطان خشقدم فوقف عليه يزوره فقال للسلطان اذا كان لك حاجة فقل
فيها الشيخ زكريا فركب السلطان فزاره فانهرعت الناس اليه فمن ذلك اليوم
اشتهر بالصلاح وقال لي مرة انها كانت غلطة فقلت له ما هي فقال توليتي
القضا صيرتني وراء الناس مع اني كنت مسولا من السلطان قايتباي فقلت
له يا سيدي اني سمعت بعض الاولياء يقول كانت ولاية الشيخ للقضا سترة
لحاله لما شاع عند الناس من صلاحه وزهده وورعه ومكاشفاته فقال
الحمد لله الذي خففت عني يا ولدي وقال لي مرة لما سالني السلطان في
القضا ابيت فغمز النقيب فاخرج لي الخلعة ووضعها على ظهري مفاجاة
وطلبت لي بغلة اركبها فقلت لا اغير حمارتي فركبت الحمارة والالبس
الخلعة فجاتني البغلة في اثنا الطريق وغلبوا على بركوبها فركبتها الى
البيت وقال لي السلطان مرة لقد شاورت نفسي ان اخذ بلجام
بغلتك وامشي معك الى بيتك ولي الشرف بذلك قال ولم يكن احد
يحمل نصحي بالكلام الجافي من المداهنة مثل السلطان قايتباي لو قلت الحالي
لاحد من علما الزمان ما قلت له لعاداني طول عمره قال وكنت اذا
تعدى على مسلم نهيته بالنصح الغرض له في الخطبة لذلك خطابا عاما للحاضرين
فيلحق هو بذلك فاذا سلمت من صلاة الجمعة قام لي وسلم علي وقال
جزاك الله عنا خيرا في هذا النصح ثم لم تزل الحسدة يوحون الى السلطان
ويظهرون له المحبة والتاثير من نصحي له ووعظي وانه يرسل يمنعني
من التعرض له في الخطبة حتى قال لهم يوما فما ذا افعل اقول لشخص
يبصرني بعيوبي لا تعد تنصحني قال ثم اني اغلظت عليه يوما في
النصيحة بحضرة بعض الامرا الاكابر فتطوحني فتقدمت اليه ومسكت
يده وقلت له يا مولانا السلطان انما اعظك بامور اعرفها انها تغطى
عليك واخاف على جسمك هذا ان يصير فحما من فحم جهنم فصار

Copyright © King Saud University